

الفصل التمهيدي

ظهور واتساع دولة الكانم البرنو

- أ) موقع دولة الكانم والبرنو
- ب) العناصر السكانية في الدولة
- ج) تأسيس دولة الكانم والبرنو
- د) مرحلة سيادة كانم
- هـ) مرحلة سيادة برنو

أ / موقع دولة الكانم والبرنو

لقد أطلق العرب على المنطقة الممتدة جنوب الصحراء فيما بين بلاد الحبشة شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً أسم بلاد السودان⁽¹⁾ وقد نقل هذا المصطلح عنهم بعض المؤرخين الأوروبيين⁽²⁾ فهذه المنطقة تقع بين منطقة الصحراء في الشمال ومنطقة الغابات الاستوائية بوسط أفريقيا في الجنوب، ونظراً لامتداد هذه المنطقة على رقعة جغرافية كبيرة، ولتنوع العناصر البشرية في هذه المنطقة فقد قسمها المؤرخون إلى ثلاثة أقسام هي :

1) السودان الغربي : ويمتد من نهر النيجر شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، وقد ظهرت في هذا الجزء الممالك المعروفة في السودان الغربي مثل غانه ومالي وصنغاي .

2) السودان الأوسط : ويمتد من نهر النيجر غرباً إلى منطقة كردفان شرقاً وأبرز دولة قامت في هذه المنطقة هي دولة الكانم والبرنو التي نشأت حول بحيرة تشاد⁽³⁾.

⁽¹⁾ لقد ورد مصطلح السودان عند كثير من المؤرخين والجغرافيين العرب القدامى منهم المقدسي الذي قال " أن السودان تتأخم هذا الإقليم ومصر من الجنوب ، وكذلك أبن خلدون الذي قال " والسودان أصناف وشعوب وقبائل ، أشهرهم بالمشرق الزنج والنوبة يليهم الزغاوة ويليههم الكانم ويليههم من غربهم كوكو وينصلون بالبحر المحيط " أنظر - شمس الدين أبو عبد الله المقدسي - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - ط 2 - ليدن " د . ت " ص 341 ، وعبد الرحمن بن خلدون - العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من دوى السلطان الأكبر - بيروت - دار الكتب العلمية - 1992 م . ج 6 . ص 235

- P.M. holt ,M.dlay .A history of the Sudan from the coming of Islam to the present day - London-1988-p1

⁽³⁾ يؤكد هذا ما ذكره العمرى من أن كانم تجاور بلاد النوبة وبينها وبين بلاد مالي مسافة بعيدة جداً - انظر : شهاب الدين أحمد بن يحيى العمرى - مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - تحقيق :

حمزة أحمد عباس -ابو ظبي - المجمع الثقافي - 2002 - ج 2 ص 95

(3) **السودان الشرقي** : ويمتد من منطقة كردفان إلى هضبة الحبشة، وقد شهدت هذه المنطقة قيام ممالك النوبة المسيحية والإمارات الإسلامية على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر⁽¹⁾

إذاً تقع دولة الكانم والبرنو ضمن ما أُصطلح على تسميته بالسودان الأوسط وقد ظهرت هذه الدولة حول بحيرة تشاد⁽²⁾، ولعل خصوبة المنطقة المحيطة بالبحيرة وموقعها كمركز هام لتجارة القوافل كانت من الأسباب التي جعلتها القاعدة الرئيسة للدولة .

يجب أن نعترف في البداية بأن محاولة التعرف على حدود هذه الدولة بدقة هي مهمة صعبة وذلك للأسباب التالية : —

1 — تشابه المظاهر الجغرافية للمنطقة، فمنطقة بحيرة تشاد تعد امتداداً للصحراء الكبرى فهي "تتميز بخلوها من المظاهر التي يمكن أن تقوم كحدود طبيعية لها"⁽³⁾ لذلك تداخلت حدودها مع بلاد النوبة في الشرق وبلاد الهوسا في الغرب ومناطق جنوب الصحراء في الشمال .

2 — من الطبيعي أن يخضع اتساع هذه الدولة للظروف السياسية التي مرت بها فقد امتدت هذه الحدود شمالاً لتشمل جهات من فزان وبعضاً من مناطق النوبة وبلاد الهوسا، بينما انكمشت أحياناً أخرى لتقتصر على المناطق المحيطة بالبحيرة، فتباين شخصيات العناصر الحاكمة كان له دور في تحديد الرقعة الجغرافية للدولة بمعنى أن اتساع هذه الدولة وانكماشها كان انعكاساً لقوة من يملكون زمام الأمور بها، ففي عهد الماي دونمه دباليمي⁽⁴⁾ " 490 — 545 هـ / 1096 — 1150 م "

(1) - أنظر الخريطة في شكل رقم 13 في ملحق الرسالة

(2) - Phyllis M. Martin, Patrick O'Meara-Africa-London-British library-1995 – P82.

(3) بوفيل — تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير — ترجمة : الهادي أبولقمة ، محمد عزيز بنغازي — جامعة قار يونس — 1988 — ص 364 .

(4) دونمه دباليمي من أشهر سلاطين دولة كانم ، حيث وصل عدد جيشه إلى مائة ألف من الفرسان ومائة وعشرون ألف من الجنود ، وقد قام هذا الماي بدور كبير في نشر الإسلام ونجح في توسيع حدود = = = الدولة حتى شملت بعض مناطق الهوسة وإقليم فزان، وقد أدى فريضة الحج مرتين ومات غرقاً في البحر الأحمر " سفرمة عمر بن عثمان — ديوان سلاطين الكانم والبرنو ، نشر (Deirk Lange –chronologie-Et Historie P,un Royaume African –Franz Steiner Verlag – Gmbh- Wiepaden- 1977), P 32.

على سبيل المثال وصلت الدولة إلى منطقة فزان شمالاً، وإقليم دارفور شرقاً، والمناطق المتاخمة لبحيرة تشاد من الجنوب ولم تذكر لنا المصادر الحدود الغربية لهذه المملكة بدقة⁽¹⁾.

3 — إن الفترة التي ظهرت فيها هذه الدولة لم تكن أفريقيا قد عرفت فيها الحدود السياسية الموجودة في الوقت الحاضر، حيث كانت حدود الدول تتداخل بشكل كبير نتيجة للظروف السياسية والعسكرية لهذه الدول بسبب الهجرات البشرية من مكان إلى آخر، وهذه الهجرات تؤثر بالتأكيد على التكوين السكاني للمنطقة، لهذه الأسباب تبدو مهمة التعرف على حدود هذه الدولة بدقة مهمة صعبة، ولكننا سنحاول التعرف على هذه الحدود استناداً على الإشارات الواردة في المصادر القديمة .

يذكر البكري إن كانم امتدت وراء صحراء زويلة⁽²⁾، ولا يكاد أحد يصل إليها⁽³⁾، كما يذكر أن الحدود الغربية لهذه البلاد عند نهر النيجر وأنها ضمت قسماً من بلاد الهوسا، والبكري هنا لم يحدد الحدود الشمالية لدولة كانم بأحد المعالم البارزة بل أكتفى بالقول أنها امتدت وراء صحراء زويلة، كما عبر عن المسافة الشاسعة بين زويلة وبلاد كانم بقوله " ولا يكاد أحد يصل إليها "، أما الحدود الغربية لكانم فقد امتدت حتى نهر النيجر وهو تحديد دقيق، ولكننا نفهم منه خضوع أغلب بلاد الهوسا لدولة كانم وهو ما لم يحدث بشكل دائم بل حدث في فترات القوة لدولة كانم ، والمرجح هنا أنها كانت تضم أجزاء من بلاد الهوسا .

(1) — يذكر البكري أن بلد كانم وراء صحراء زويلة ولا يكاد أحد يصل إليهم ، ولم يتحدث عن الحدود الغربية والجنوبية والشرقية بدقة ، أنظر :-أبو عبيد الله البكري — المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب — بغداد — مكتبة المثنى — 1907 — ص 11 .

(2) — زويلة : تقع مقابل أجاديبا في البر بين بلاد السودان وأفريقيا ، وهي أول حدود بلاد السودان ، ومن بلد زويلة إلى كانم أربعون مرحلة ، وهم وراء صحراء من وراء بلاد زويلة " ياقوت الحموي — معجم البلدان — بيروت — دار صادر — 1977 — ج 3 — ص 160 .

(3) — البكري — المصدر السابق — ص 11 .

أما الدمشقي فيجعل بلاد كانم تمتد حتى تتصل بنهر النيل حيث يوجد الأحباش⁽¹⁾، فالدمشقي يكتفي بذكر الحدود الشرقية لدولة كانم ويعدها تمتد حتى نهر النيل، وقد انفرد الدمشقي بهذه المعلومة فلم يذكر غيره من المؤرخين أن حدود كانم وصلت إلى نهر النيل، والحقيقة أن الحدود الشرقية لهذه الدولة لم تصل إلى نهر النيل حتى في أقصى فترات اتساعها .

من المؤرخين الذين أشاروا إلى بلاد كانم الأديسي حيث ذكر في حديثه عن سكان أنجيمي أنهم يجاورون النوبة من جهة الشرق، وبين مدينة أنجيمي والنيل ثلاثة أيام⁽²⁾، ولا ندري سبب الالتباس الذي وقع فيه الأديسي عندما ذكر أن أهل كانم يجاورون النوبة من جهة الشرق فالمتفق عليه أن بلاد كانم تقع إلى الغرب من بلاد النوبة وبالتالي فأهلها يجاورون النوبة من جهة الغرب وليس الشرق ولعل مصدر العمرى أكثر دقة من بقية المصادر القديمة في ذكر حدود بلاد كانم حيث قال : " أن كانم تجاور بلاد النوبة، وبينها وبين مالى مسافة بعيدة جداً ⁽³⁾ " ولم يكتف العمرى بهذه الإشارة العامة بل حاول تحديد هذه الدولة فأوضح إنها تبدأ من ناحية مصر ببلدة زلا ⁽⁴⁾ شمالاً وتنتهي حدودها ببلدة كاكافى الجنوب كما تحددها دنقلة ⁽⁵⁾ من الشرق، وتقع مملكة أفريقيا شمالها ويوجد في الجنوب كفار السودان .

(1) -شمس الدين أبى عبدالله الدمشقى - نخبة الدهر في عجائب البر والبحر - ليبزج - 1923 -

ص 241

(2) - أبو عبدالله محمد الأديسي - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق - الجزائر 1957 ج 1 - ص

29

(3) - العمرى - مصدر سابق - ج 3 - ص 490 .

(4) - زلا : تقع في منطقة المغرب الأدنى " قرب ودان " وحيث أن الثابت تاريخياً أن دولة الكانم لم تصل إلى هذه المنطقة . فالمرجح أن المقصود هنا زوبله التي تقع جنوب فزان ضمن مناطق خضعت لسيطرة كانم في بعض الفترات .

(5) - دنقله : تقع في غرب النيل وعلى ضفته ومنه شرب أهلها وأهلها سودان ، لكنهم أحسن الناس

وجوها ، وأجملهم شكلاً وطعامهم الشعير والدره والتمر " أنظر الأديسي - المصدر السابق ص

37 = = = لمزيد من التفاصيل أنظر / كرم الصاوى - ممالك النوبة في العصر المملوكى - رسالة

دكتوراه غير منشورة معهد البحوث والدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة - 1991 م .

لقد حاول العمرى الاعتماد على معالم ثابتة في تحديد حدود الدولة خاصة من نواحي الشمال والشرق والجنوب، وتتمثل هذه المعالم في المدن التي ذكرها، ويؤكد الحموى مذكره العمرى من خضوع المناطق الجنوبية من المغرب الأدنى لدولة الكانم في بعض الفترات حيث يذكر أن سلطان كاوار⁽¹⁾ في طاعة ملك الزغاوة⁽²⁾ وربما كانت جهود سلاطين كانم في التوسع شمالاً يهدف إلى ضمان استمرار المبادلات التجارية مع المناطق الشمالية وتأمين طرق القوافل، أما ابن خلدون فيؤكد مذكره العمرى حول الحدود الشرقية لدولة كانم حيث يذكر أن بلاد الزغاوة تتصل بأرض النوبة، وأن هذه البلاد كانت تتبع الكانم⁽³⁾.

إن أول ما نلاحظه من إشارات في المصادر القديمة حول موقع بلاد الكانم هو نقص المعلومات في هذه المصادر فيما يتصل بالحدود الجنوبية للدولة، فاعلم المصادر لم تشر إلى الحدود الجنوبية، وحتى العمرى الذي حاول تحديد موقع البلاد بدقة، وذكر مدينة كاكا قد أنهى العبارة بما يوحي بغياب المعلومة الدقيقة حيث قال: " وفي الجنوب كفار السودان "⁽⁴⁾ ونتيجة لغياب هذه المعلومات حلت الصورة الأسطورية النابعة من الخيال محل الحقيقة التاريخية لإشباع الرغبة الإنسانية في معرفة المجهول، وقد استندت هذه الصورة علي روايات شفوية غلب عليها الطابع القصصي الأسطوري. ولا يمكن لهذه الروايات أن تصمد أمام الحقائق التاريخية، فالمعروف أن منطقة الغابات الاستوائية المتاخمة لبلاد الكانم من الجنوب تسكنها

(1) -كاوار : ناحية واسعة في جنوب فزان بها مدن كثيرة فيها قصر عيسى وأبو البلاء وألوان أهلها صفر بلبسون الصوف ، وفي بلادهم أسواق ومياه جارية ونخل كثير ولهم سلطان في طاعة ملك

الزغاوة " الحموى - المصدر السابق - ج 4 ، ص 432 .

(2) - الحموى - المصدر السابق - ج 4 ، ص 432 .

(3) - ابن خلدون - المصدر السابق - ج 1 - ص 43 .

(4) - العمرى - المصدر السابق ، ج 3 - ص 490 .

مجموعات من الزوج الذين لا يختلفون في أشكالهم وقدراتهم الجسمية عن بقية البشر .

نخلص مما سبق ذكره من إشارات وردت في المصادر القديمة حول موقع بلاد الكانم إلى غياب التحديد الدقيق لهذه البلاد للأسباب التي ذكرناها، ولكننا سنحاول من خلال هذه الإشارات المتفرقة أن نضع تصوراً لموقع هذه الدولة والمناطق التي خضعت لها مع الاعتراف بأن هذا التصور ليس ثابتاً في كل المراحل التي مرت بها الدولة فحدود هذه الدولة تتسع وتتكشف وفقاً للظروف السياسية التي تمر بها .

لقد اتفقت المصادر والمراجع على أن مهد دولة الكانم والبرنو هو منطقة بحيرة تشاد حيث تتوسط البحيرة قلب الدولة وهي موقع هام لالتقاء طرق القوافل المارة عبر أفريقيا وتعد صحراء جنوب فزان أقصى ما وصلت إليه دولة الكانم، ولاشك أن هذه الحدود تتداخل أحياناً بفعل غزوات ملوك الكانم ناحية الشمال وبفعل الهجمات التي تقوم بها قبائل الطوارق ⁽¹⁾ والتيبو ⁽²⁾ خلال فترات ضعف دولة الكانم أما من الناحية الجنوبية فحدود هذه الدولة تصل إلى مناطق الغابات الاستوائية بينما تتصل من الناحية

(1) - الطوارق : جاء الاسم نسبة إلى قبيلة ترغا الصنهاجية ويسمون أحياناً بالملثمين وعاش الطوارق يجوبون الصحراء الممتدة بين الساحل المغربي وبلاد السودان والطوارق يرجعون نسبهم البعيد إلى حمير " للمزيد من المعلومات أنظر أبين خلدون - المصدر السابق - ج 6 - ص 110 .
وعبدالرحمن السعدى تاريخ السودان - نشر هوداس - باريس 1898 م ص 25 .

(2) - التيبو : من القبائل ذات الأصول البربرية التي استقرت في جبال تيبستى وقد عرفوا أحياناً باسم (التيدا) وقد هاجروا التيبو إلى منطقة بحيرة تشاد خلال القرن الخامس والسادس " الحادي عشر والثاني عشر " أنظر " إبراهيم طرخان - إمبراطورية البرنو الإسلامية - القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1975 م - ص 28 .

الشرقية ببلاد النوبة ⁽¹⁾، وتتداخل حدودها من الناحية الغربية مع بلاد الهوسا لقد جعل هذا الموقع المتوسط بلاد كانم حلقة وصل بين منطقة السودان الغربي والشرقي وبين مناطق الصحراء في الشمال ومناطق الغابات الاستوائية في الجنوب مما جعل هذه الدولة تلعب دوراً مؤثراً في الحياة السياسية والاقتصادية في منطقة السودان الأوسط ⁽²⁾، حيث كانت هذه الدولة معبراً للمؤثرات الدينية والسياسية من الشمال إلى الجنوب، كما أسهمت هذه الدولة في نشر الإسلام في المناطق المتاخمة لها من الجنوب، ومن جهة أخرى فإن حركة هجرات القبائل عبر أراضي الكانم والبرنو قد جعلها تتشكل من عدة عناصر سكانية مما أدى إلى تنوع المظاهر الحضارية في المنطقة .

ب . العناصر السكانية في دولة الكانم والبرنو

لقد تميزت دولة الكانم بموقع متوسط يسيطر على طرق التجارة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، كما امتازت منطقة بحيرة تشاد بخصوبة أرضها وخلوها من العوائق الطبيعية، ولاشك أن هذه المميزات الجغرافية كان لها علاقة وطيدة بالتكوين السكاني في المنطقة حيث قصدتها منذ القدم مجموعات بشرية اختلطت مع سكانها الأصليين، بحيث لم يعد هناك جنس نقي محتفظ بصفاته الأصلية ⁽³⁾.

(1) - العمرى - المصدر السابق ج 3. ص 490، ابن خلدون - المصدر السابق - ج 1 - ص 43

(2) - مما يدل على مكانة هذه الدولة ما ذكره محمود كعت من ان سلاطين الدنيا اربعة سلطان بغداد و سلطان مصر و سلطان برن و سلطان ملي ، انظر : محمود كعت - تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيش و اكابر الناس - باريس - طبع هوداس - 1964 - ص 38 .

(3) - لقد عبر الوزان عن هذا الاختلاط بقوله " ومهما اختلفت مظاهر الأفارقة البيض والسود فإنهم ينتمون تقريباً إلى نفس الأصل " كما يقول في مكان آخر " وعندما أمن العرب أصبحوا مواطنين بهذه البلاد ممتازين بالأفارقة - الحسن بن محمد الوزان - وصف أفريقيا - ترجمة أحمد صبحي ، = = محمد الأخضر - بيروت - دار الغرب الإسلامي - 1983 - ص 35 ، ص 41 . أنظر أيضاً : إبراهيم طرخان - المرجع السابق . ص 19 .

إن أبرز الروابط التي ربطت بين هذه القبائل ووثقت علاقاتها الاجتماعية هو رباط التزاوج، كذلك فإن اندماج القبائل بشكل ملحوظ قد يكون من آثار الشعور بالمصلحة المشتركة في الدفاع عن هذه المنطقة المستهدفة من الغزاة، ولعل أول ما يلاحظ الباحث في التكوين السكاني لهذه المنطقة، وحركة الهجرة منها وإليها هو أن أغلب الهجرات جاءت من الشمال والشرق حيث وصل إليها عدد كبير من الكوشيين خلال القرن الرابع الميلادي على أثر الفتح الأكسومي لبلاد كوش⁽¹⁾، كذلك كانت هذه المنطقة مقصداً لكثير من القبائل القاطنة في الشمال، ويمكننا تفسير اتجاه الهجرات من الشمال إلى منطقة بحيرة تشاد بدوافع اقتصادية تتمثل في ازدياد ظاهرة الجفاف تدريجياً في منطقة الصحراء، واضطرار سكانها إلى البحث عن أرض خصبة ومياه وفيرة . وكانت أقرب منطقة تتوفر فيها هذه المقومات هي منطقة بحيرة تشاد، لذلك اتجهت قبائل الصحراء للاستقرار فيها، ولعبت هذه القبائل دوراً ملموساً في قيام دولة الكانم والبرنو .

أما الهجرات القادمة من الناحية الشرقية فلا يمكن توقع أن يكون الدافع الاقتصادي وراءها، لأن مناطق حوض نهر النيل من أخصب الأراضي في المنطقة، وأكثرها مياهاً ولكننا نرجح أن الأسباب السياسية كانت وراء هذه الهجرات بدليل أن هجرة الكوشيين خلال القرن الرابع الميلادي قد جاءت على أثر أحداث سياسية⁽²⁾ تمثلت في غزو الأحباش الذي أدى إلى سقوط دولة كوش⁽³⁾، وسنقتصر هنا على ذكر القبائل الأصلية القاطنة حول بحيرة تشاد منذ فترة طويلة أو التي جاءت إلى المنطقة في هجرات قديمة، وسنرجئ الحديث عن القبائل العربية إلى الفصل الخامس من هذا البحث ضمن حديثنا عن أثر الهجرات العربية

(1) - طرخان - المرجع السابق - ص 19 .

(2) - ربما جاءت هذه الهجرة أيضاً لعوامل اقتصادية فقد وصف الأديسي كوش بأن " أهلها قليلون وتجارتها قليلة وأرضها حارة جافة وهى في طاعة ملك النوبه " الأديسي - المصدر السابق - ص 37 .

(3) - طرخان - المرجع السابق - ص 19

على التكوين السكاني لمجتمع الكانم ومن أبرز القبائل التي استقرت في منطقة بحيرة تشاد منذ فترة طويلة :-

الصو So :-

لقد اختلفت آراء المؤرخين حول أصل قبائل الصو وموطنهم الأصلي حيث يرى بارت Barth أنهم قسم من الفولانيين الذين أتوا من السودان الغربي وتحديداً من منطقة نهر النيجر والسنغال وسكنوا في المنطقة الممتدة من جبال تيبستي إلى جنوب بحيرة تشاد.

أما بالمر Palmer فيرى ان الموطن الأصلي للصو هو منطقة فزان جنوب ليبيا، فيما يسمى بمنطقة كاوار كما حاول بعض المؤرخين أن يرد أصول الصو إلى سلالة الهكسوس على أساس التشابه في الصفات الوراثية، والدور التاريخي الذي قام به هؤلاء في قلب أفريقيا و أولئك في مصر⁽¹⁾ بينما يرى البعض الآخر أن الصو يرجع أصلهم إلى حوض نهر النيل.

أن المتفق عليه بين المؤرخين هو أن الصو من القبائل التي استقرت حول بحيرة تشاد في فترة مبكرة، أما أصل هذه القبائل فقد اختلفت فيه الآراء كما رأينا. وإذا كان بعض الآراء قد استندت على أدلة مقنعة فبعضها الآخر يعوزه الدليل القوي فأرجاع أصل الصو إلى الهكسوس استناداً على التشابه في الصفات الوراثية يبتعد عن الحقيقة " فالهكسوس غزوا مصر في عهد الأسرة الحادية عشر، وحكموا شمال مصر وعندما انتصر أحمس عليهم وطردهم كان اتجاه

(1) -يعتمد هذا الرأي على أساس تشابه الخلقة والدور التاريخي الذي قام به هؤلاء في قلب أفريقيا وأولئك في مصر وذلك من حيث اعتمادهم على الخيل في حروبهم واستعمالهم العربات التي تربط خلف الحصان " انظر : فضل كلود - الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية الكانم - طرابلس - كلية الدعوة الإسلامية 1988 م ص 53 " أنظر أيضاً - طرخان - المرجع

انسحابهم نحو الشرق وهى الجهة التي قدموا منها " (1) ولم يثبت تاريخياً أن الهكسوس اتجهوا جنوباً، والمرجح أن الصو يرجع أصلهم إلى الحوض الجنوبي لنهر النيل وقد بنينا هذا الترجيح على مايلي :

1- إن هذه المنطقة كانت مصدراً للهجرات إلى بحيرة تشاد، وقد رأينا كيف أتجه الكوشيون إلى بحيرة تشاد بعد سقوط دولتهم على يد الأحباش، فمنطقة بحيرة تشاد تعد امتداداً طبيعياً لحوض نهر النيل حيث لا توجد موانع طبيعية كالجبال أو الغابات تعرقل سير الهجرات من حوض النيل إلى بحيرة تشاد، فضلاً عن ذلك قرب منطقة البحيرة لحوض النيل فهي أول بلاد تليها من ناحية الغرب (2).

2 - تشابه المظاهر الحضارية التي عرفها الصو مع حضارات وادي النيل، وتتمثل هذه المظاهر في الصناعات وخاصة صناعة الفخار والنحت والرسوم على جدران الكهوف ومن روائع فنونهم الصناعية التي تشبه صناعات حوض النيل " رؤوس الأكباش التي يصنعونها من الفخار، ورسوم صور الحيوانات، ومشاهد الألعاب الرياضية " (3). وقد استند هذا التشابه على الحفريات الأثرية التي دلت على وجود صلات وثيقة بين سكان وادي النيل ومنطقة النيجر، وحوض بحيرة تشاد (4).

3 - تشابه الصفات الجسمية بين الصو وسكان حوض نهر النيل حيث أمتاز الصو بالطول كغيرهم من سكان حوض النيل حتى لقبوا بالعمالقة، وإن كانت أساطيرهم القديمة تباليغ في وصف أجسامهم بما يضيفي عليها صبغة خيالية بعيدة عن الواقع (5). لقد أقام الصو دولة كانت عاصمتها البلماء شمال بحيرة تشاد، وعندما قامت دولة الكانم والبرنو خضع الصو لها وأصبحت بلادهم جزءاً منها إلا

(1) -سليم حسن - مصر القديمة ج-4. القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1993 م . ص

(2) -العمري - المصدر السابق - ج 3 - ص 490 .

(3) -Palmer - The Bornu Sahara and sudan - london -1936 - P . 126

(4) - Abid -P 126

(5) - ذكر بأن طول الواحد منهم لا يقل عن عشرين ذراعاً ، وإذا صاح أحدهم هاجت الطيور في

أوكارها ، وأن الفرد منهم يستطيع حمل الحيوان الضخم . أنظر : Palmer -The Bornu

أن هذا الخضوع لم يكن دائماً، حيث كانوا يثورون على هذه الدولة بين الحين والآخر، وكانوا أحد أسباب وقف اتساع هذه الدولة في عصورها الأولى⁽¹⁾.

2- الزغاوة Zagaua :

تعد هذه القبيلة من أبرز القبائل التي لعبت دوراً أساسياً قبل قيام دولة الكانم والبرنو، ثم أسهمت في ظهور هذه الدولة، وقد أشارت المصادر العربية القديمة إلى الزغاوة بما يوحى بشهرة مملكتهم واتساعها، حيث يذكر المسعودي أن مملكة الزغاوة واسعة كبيرة⁽²⁾، كما يؤكد هذا الرأي التونسي الذي يصف الزغاوة بأنها قبيلة عظيمة من السودان وقد وصلت حدودها إلى بلاد النوبة شرقاً ومدينة مانان هي حاضرة المملكة⁽³⁾ أما ياقوت الحموي فيذكر أن الزغاوة " مملكة عظيمة من ممالك السودان في حد المشرق منها مملكة النوبة التي بأعلى صعيد مصر بينهما مسيرة عشرة أيام"⁽⁴⁾، ثم يؤكد الحموي اتساع هذه المملكة وكثرة عمرانها فيقول " أن طول بلادهم خمس عشرة مرحلة في مثلها عمارة متصلة"⁽⁵⁾، كما يؤكد لويس (Lewis) وجود إمارة الزغاوة قبل ظهور دولة الكانم والبرنو⁽⁶⁾.

لقد عرف الزغاوة بعض المظاهر الحضارية حيث يصف الحموي لباسهم وثروتهم فيقول " وزى ملوكهم سراويلات من صوف رقيق والانتشاح عليها بالثياب الرقيقة من الصوف والأسماط والخز السوسي والديباج الرفيع، وسلطانهم يده مطلقة في رعاياه، وغالب ثروتهم المواشي من الغنم والبقر والإبل والخيول،

(1) - فضل كلود - المرجع السابق ، ص 55

(2) - علي بن الحسين المسعودي - مروج الذهب - بيروت - دار الأندلس - 1983 م - ج 1 - ص 422

(3) - محمد بن عمر التونسي - تشديد الأذهان بسيرة بلاد السودان - تحقيق : خليل عساكر ، مصطفى مسعد - القاهرة - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر - 1965 م . ص 54 .

(4) - الحموي - مصدر سابق - ج 3 . ص 142 .

(5) - المصدر نفسه - ج 3 . ص 142

(6) I.M. Lewis-Islam in Tropical Africa - London - University library for Africa - 1980 - P 230.

وزروع بلادهم أكثرها الذرة واللوبيا والقمح⁽¹⁾، أما عن لغة الزغاوة الأصلية فهي قريبة من لغة التيبو، وبعد انتشار الإسلام بينهم أصبحت اللغة العربية هي لغة الدواوين والمكاتبات الرسمية لملوكهم

لقد اختلف المؤرخون حول اصل الزغاوة، وفي تاريخ استقرارهم شرق بحيرة تشاد فأرجعهم البعض إلى أصول بعيدة حيث يتفق المسعودي واليعقوبي على أنهم ينتمون إلى كوش بن كنعان بن نوح، وقد اتجه الزغاوة إلى ناحية الغرب بعد عبورهم للنيل⁽²⁾، بينما يشير ابن خلدون إشارة عامة إلى أصل الزغاوة حيث يرى أنهم ينتمون إلى أصول حامية⁽³⁾، ولم يقتصر الخلاف حول أصل الزغاوة على المصادر القديمة بل استمر الخلاف حول هذه النقطة في المراجع الحديثة وسنذكر نموذجين لهذا الخلاف حيث يرى البعض أن زغاوة فرع من قبيلة زواغة التي كانت تسكن في منطقة الجريد جنوبى تونس⁽⁴⁾، بينما هناك رأى آخر يرى أن هذه القبيلة كانت تسكن في مملكة مروى ثم اتجهت ناحية الغرب عن طريق كردفان واستقرت شرق بحيرة تشاد ويستند هذا الرأي على وجود تقليد متبع لدى الزغاوة يجعل الزعامة تنتقل إلى ابن الأخت وفي حالة عدم وجوده تنتقل إلى ابن الخالة وهو نفس التقليد السائد في النيل الأوسط⁽⁵⁾.

يميل الباحث أمام هذين الرأيين إلى الرأي الأول الذي يرى أن الزغاوة ينتمون إلى أصول جاءت من شمال أفريقيا مستنداً في هذا الترجيح إلى مايلي :-

(1) - الحموي - مصدر سابق - ج 3 . ص 142 .

(2) - أحمد اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي - بيروت - دار صادر - 1960 م - ج 1 . ص 191 ، أنظر أيضاً المسعودي - المصدر السابق - ج 1 - ص 235

(3) - ابن خلدون - المصدر السابق - ج 6 . ص 106 .

(4) - الحموي - المصدر السابق - ج 3 - ص 142

(5) - الشاطر بصيلي معالم تاريخ السودان وادي النيل من القرن العاشر الي القرن التاسع عشر الميلادي القاهرة - 1955 م - ص 59

1 — اتفاق هذا الرأي مع المصادر القديمة التي ذكرت أن الزغاوة اتجهوا إلى بلاد المغرب بعد عبورهم للنيل وقد ذكر هذا الرأي اليعقوبي والمسعودي ⁽¹⁾.

2 — تشابه أنماط الحياة بين الزغاوة والبربر حيث يصف الأدريسى الزغاوة بأنهم " قوم رحل ظواغن والأبل عندهم كثيرة اللقاح حسنة الإنتاج، وهم ينسجون من أوبارها البيوت التي يعمرونها ويأوون إليها، ويتصرفون في ألبانها وأسمانها ويتعيشون من لحمها" ⁽²⁾ وتتطبق هذه الصفات على القبائل البربرية التي عاشت في منطقة الصحراء، ويؤكد هذا أيضاً ما ذكره بوفيل Bufil من أن الزغاوة فرع لبعض السكان الرحل ⁽³⁾.

3 — أن ياقوت الحموى عندما تحدث عن الزغاوة ذكر أنهم قبيلة من السودان جنوبي تونس ⁽⁴⁾ فتحديد سكنهم بجنوبي تونس ربما يشير إلى الموطن الأصلي لهذه القبيلة، كذلك فإن اللغة التي يتحدث بها الزغاوة قريبة من لغة التيبو وهم من القبائل التي تنتقل بين منطقة فزان وجبال تيبستي مما يؤكد ترجيحنا للأصول الشمالية للزغاوة .

إن هذه الاعتبارات لاتمنع تحرك هجرات قبائل من حوض النيل استقرت في منطقة شرق بحيرة تشاد واندмجت مع الزغاوة، ولعل من نتائج هذه الهجرات نقل بعض المظاهر السياسية التي كانت سائدة في حوض النيل مثل وراثة ابن الأخت أو ابن الخالة للحكم حيث تأثر الزغاوة بهذه المظاهر وأصبحت جزءاً من حياتهم السياسية .

لقد استمر الزغاوة يحتفظون بنوع من الاستقلال الذاتي حتى بعد قيام دولة الكانم والبرنو حيث استمروا يسيطرون على منطقة كبيرة حول بحيرة فترى .

(1) -اليعقوبي — المصدر السابق — ج 1 .ص.191، المسعودي -المصدر السابق ج 1، ص.422 .

(2) -الأدريسى — المصدر السابق — ج 1 — ص 111 .

(3) -بوفيل — المرجع السابق — ص 363 .

(4) - الحموى — المصدر السابق — ج 3 ، ص 142 .

وأصبحت عاصمتهم مدينة سامينا⁽¹⁾ ومن مدنهم المشهورة مدينة شيبين⁽²⁾، وكان لهم حاكم مستقل يخضع بشكل اسمي لدولة الكانم ولم تزودنا المصادر القديمة بمعلومات دقيقة حول شكل نظام الحكم أو أسماء ملوك الزغاوة في تلك الفترة سوى ما ذكره اليعقوبى بقوله " ويقال لملكهم كراكرة " ⁽³⁾.

3 - الكانمبو Kanembu :-

يعد الكانمبو من القبائل التي سكنت تشاد في فترة مبكرة وقد جاء أسم الكانمبو من النسبة إلى كانم فيقال في لغة الكانم " كانم ما أي رجل كانمي " وفي الجمع كانم بو أي كانميين ⁽⁴⁾ وقد اختلط الكانمبو بالمجموعات القبلية التي استقرت في منطقة بحيرة تشاد حتى ان بعض المؤرخين يعد هذه القبائل خليطاً من قبائل الصو والبربر⁽⁵⁾، ومما يؤكد اندماج الكانمبو مع البربر أن قبائل الهوسا كانت تطلق على الكانمبو أسم بربر " BariBari " ⁽⁶⁾.

لقد تميز الكانمبو عن بقية القبائل في منطقة بحيرة تشاد بميلهم إلى الاستقرار وركونهم إلى حياة المدن حيث كانوا يعتمدون على الزراعة والتجارة والصناعات اليدوية كالنحت وصناعة الحديد كما تميز الكانمبو بالصناعات الخزفية والنسيج .

(1) - سامينا : تقع هذه المدينة قرب بحيرة تشاد فترى ، وكانت عاصمة للزغاوة ، وعرفت أحياناً باسم

تاجو " Taju " ، طرخان المرجع السابق ، ص 69

(2) - شيبين : من المدن المشهورة التي خضعت لسيطرة الزغاوة وتقع قرب بحيرة تشاد أنظر طرخان - المرجع السابق ص 69 .

(3) - اليعقوبى - المصدر السابق - ج 1 - ص 157 .

(4) - طرخان - المرجع السابق - ص 24 .

(5) - المرجع نفسه - ص 23 .

(6) - البربر : أطلق هذا الاسم على سكان شمال أفريقيا في العصور القديمة والمرجح أن أول من أطلقه عليهم الرومان على اعتبار أنهم ليسوا مواطنين رومانيين وقد وصفهم ابن حوقل بأنهم (قبائل لا يلحق عددهم ويوقف على اخرهم لكثرة بطونهم وتشعب أفخاذهم وقبائلهم وتوغلهم في البراري وتبدهم في الصحاري وجميعهم من ولد جالوت إلا قليل منهم وفيهم ملوك ورؤساء ومقدمون في القبائل يطيعونهم فلا يعصونهم ويأمرونهم فلا يخالفونهم والمال فيهم من الماشية كثير غزير) أنظر أبي القاسم ابن حوقل - صورة الأرض - بيروت - دار مكتبة الحياة - 1992م - ص 97

وللمرأة مكانة كبيرة في مجتمع الكانمبو حيث كان الأولاد ينسبون إلى أمهاتهم.

4 - الكانورى Kanuri: -

تتشابه قبائل الكانورى مع قبائل الكانمبو من حيث أنها خليط من عناصر مختلفة من العرب والبربر والزنوج، وقد جاء اسم هذه القبيلة من نسبتها إلى كانم فهي محرفة من كلمة " Kanemri " في بعض الآراء⁽¹⁾ بينما يرى البعض الآخر أن الاسم مشتق من الكلمة العربية نور وأضيف الحرف ك لدلالة على النسبة فصار معنى الكلمة " حملة النور " أو " حملة المشاعل " ⁽²⁾ والنور هنا كناية عن الإسلام⁽³⁾، ولكننا لا نميل إلى هذا الرأي بسبب ظهور هذه القبائل في الفترة التي سبقت انتشار الإسلام في منطقة بحيرة تشاد .

لقد أصبحت لغة الكانورى هي اللغة السائدة حتى أصبحت كلمة كانورى تطلق على جميع العناصر المتكلمة بهذه اللغة، ومن أبرز خصائص الكانورى الاجتماعية احتقار زعمائهم ونبلائهم للأعمال اليدوية، كما كان للمرأة مكانة كبيرة في مجتمع الكانورى، مما يؤكد اختلاط قبائل الكانورى والكانمبو وانتقال مظاهر الحياة الاجتماعية من قبيلة إلى أخرى .

(1) - فضل كلود - المرجع السابق - ص 65 .

(2) - هوتسما وآخرون - ترجمة : إبراهيم خورشيد وآخرون - دائرة المعارف الإسلامية - بيروت - المكتبة الحديثة - (د.ت) ج 3 - ص 579 ، ولا يميل الباحث إلى هذا الرأي على اعتبار أن استقرار هذه القبيلة في منطقة بحيرة تشاد يرجع إلى فترة سابقة على انتشار الإسلام واللغة العربية في المنطقة خاصة وأن الدور الكبير في نشر الإسلام يرجع إلى الوافدين من بلاد المغرب سواء أكانوا على شكل قبائل مثل الطوارق والتيبو أو على شكل تجار ودعاة كما سنرى في الفصل الأول من هذا البحث .

(3) - نرجح أن هذا الوصف ظهر بعد انتشار الإسلام في المنطقة وحرص كل قبيلة على أن تحوز شرف المساهمة في نشر الإسلام وهى تشبه محاولات قبائل أخرى ربط نسبها بالأصول العربية .

ومما يدل على هذا الاختلاط أيضاً استقرارهم في منطقة متقاربة جغرافياً حول بحيرة " فترى " (1).

لقد اسهم الكانورى في تأسيس دولة الكانم بشكل مباشر حيث ورد أن أول ملوك الكانورى وهو " دوجو - Dugu " (2) ، هو جد الأسرة الماغومية (3) التي حكمت دولة الكانم والبرنو فيما بعد (4).

5 - البولالا Bulala - -

البولالا من القبائل القوية التي لعبت دوراً سياسياً مميزاً في منطقة بحيرة تشاد حيث كانوا السبب المباشر في إنهاء المرحلة الكانمية وانتقال الأسرة الحاكمة إلى منطقة برنو غرب بحيرة تشاد بسبب ضغط هذه القبائل، ويرى البعض أن البولالا نتاج اختلاط الاثيوبيين بالسود والعرب (5) ولكن بعض المؤرخين يخالف هذا الرأي ويرى أن كلمة بولالا مكونة من لفظي بولالا ومعناها : أحرار الطوارق أو

(1) - فترى : أسم البحيرة التي أستقر حولها الكانورى ويعنى الأسم " أرض الأجناس المختلفة " أنظر Palmer -The Bornu Sahara P212 ، ويؤكد هذا الاختلاط ما ذكره طرخان من أن الزغاوة قد استقروا حول بحيرة فترى خلال سيادة الأسرة الماغومية على منطقة بحيرة تشاد ، أنظر أيضاً طرخان - المرجع السابق - ص 52

(2) - دوجو : بن إبراهيم بن سيف بن ذى يزن وهو المائى الثالث وفق الرواية التي تنسب هذه الأسرة إلى سيف بن ذى يزن ويعتبر دوجو أول من حمل لقب " مائى " وينسب إليه بعض الأعمال الحربية في الجنوب . أنظر : طرخان - المرجع السابق - ص 54

(3) - الأسرة الماغومية : هي الأسرة التي ينسب إليها تأسيس دولة الكانم والبرنو ، وكلمة ماغومى مرادفة لاسم قبيلة من أسلافهم تعرف بأسم التوماغرى أى " سكان التلال " وأختص بهذا اللقب طبقة النبلاء عند الطوارق " أنظر : طرخان - المرجع السابق - ص 51

(4) - لازلت قبيلة الكانورى موجودة بأعداد كبيرة حيث وصل عدد أفرادها في النيجر وفق إحصائية حديثة (1972) حوالي 233 ألف نسمة ، انظر :

Samuil Decalo _ Historical dictionary of Niger - London - 1979 - P. 14.

(5) - شار أندريه جوليان - تاريخ أفريقيا - ترجمة : طلعت عوض أبابزة - القاهرة - 1968 -

نبلاء الطوارق⁽¹⁾، ويميل الباحث إلى الرأي الثاني استناداً على أن البولالا هم أبناء عمومة الأسرة الماغومية، وحيث إن الماغوميين ينتمون إلى نبلاء الطوارق، لذلك لا نستبعد أن يكون اسم البولالا يعنى نبلاء الطوارق .

لقد ذكر بعض المؤرخين أن البولالا فرع من الأسرة السيفية⁽²⁾، بينما يرى البعض الآخر أنهم ينحدرون من أصول بربرية وقد قدموا من الشمال⁽³⁾ وحيث ان منطقة بحيرة تشاد قد شهدت هجرات متوالية من القبائل بحيث يجعل من الصعب على أي عناصر قبلية المحافظة على أصلها الواحد، لذلك نرجح أن البولالا من العناصر التي نتجت عن المصاهرة بين الطوارق والعرب والزنوج، ويؤكد هذا الترجيح ما ذكر عن الصفات الجسمية للبولالا التي تجمع بين الملامح العربية والزنجية حيث تميز البولالا بقوام متناسق ولون نحاسي أسمر وشعورهم ليست مجعدة ولهم شفاة رقيقة ووجوه مستطيلة⁽⁴⁾، ويميل البولالا إلى التمسك بالأصل العربي مما يدل على حرصهم على الارتباط بالنسب العربي كعادة أغلب الأسر الحاكمة في السودان الغربي والأوسط، كذلك مما يؤكد وجود روابط بين العرب وبين هذه القبائل مساعدة العرب لهم في صراعهم ضد حكام الكانم والبرنو .

لقد كانت العلاقة بين البولالا والماغوميين في البداية حسنة حيث اشتركوا في الزحف نحو الأراضي الخصبة حول بحيرة تشاد، ثم استقر البولالا في شمال البحيرة وسيطروا على الطرق التجارية، كما أقاموا هناك حاضرتهم " ميتو "، إلا أن هذه العلاقة تآزمت بعد قيام دولة الكانم حيث وقعت عدة حروب بين الطرفين انتهت بانتصار البولالا، واضطر حكام الكانم إلى الهجرة نحو غرب البحيرة في عهد الماي

⁽¹⁾ -Palmer -The Bornu Sahara P127

⁽²⁾ - عبد الفتاح مقلد الغنيمي - الإسلام وحضارته في وسط أفريقيا - سلطنة البولالا - القاهرة مكتبة مدبولي - 1996 م - ص 19

⁽³⁾ - فضل كلود - المرجع السابق - ص 69 .

⁽⁴⁾ - شارل أندريه جوليان - المرجع السابق - ص 22- أنظر أيضاً -الغنيمي-المرجع السابق ص

عمر بن أدريس⁽¹⁾ 788 – 793 هـ / 1386 – 1391 م " لتبدأ مرحلة برنو .

جـ- تأسيس دولة الكانم والبرنو

لقد تحدثنا فيما سبق عن العناصر السكانية التي كانت تقطن منطقة بحيرة تشاد ورأينا أن العناصر قد شكلت خليطاً بشرياً من الصعب الفصل بين عناصره⁽²⁾، وسنحاول هنا التعرف على كيفية نجاح الأسرة الماغومية في تأسيس نظام سياسي يجمع شمل هذه العناصر في دولة واحدة بحيث يبرز شعور الولاء لهذه الدولة إلى جانب شعور الانتماء للقبيلة .

لقد سبق قيام دولة الكانم والبرنو بعض المحاولات لإنشاء دويلات متفرقة وكان لهذه الدويلات أنماط حضارية متميزة، حيث رأينا عند حديثنا عن الصو مثلاً اشتهاهم بصناعة الفخار وإتقانهم لصناعة الحديد والنحاس، كذلك اشتهر الزغاوة بمميزات أخرى من حيث بيوتهم ولباس ملوكهم ونشاطهم الزراعي⁽³⁾، إلا أن هذه المظاهر تقتصر على دويلات إقليمية لم تأخذ شكلاً موحداً يميز منطقة بحيرة تشاد .

إن أبرز العوامل التي تؤدي إلى قيام أي دولة هو الاستقرار، وينطبق هذا بالتأكيد على دولة الكانم والبرنو حيث توفرت في منطقة بحيرة تشاد العوامل المشجعة على استقرار العناصر القبلية الوافدة⁽⁴⁾ وقد وجدت كل قبيلة ضالتها المنشودة، فالذين ينشدون الزراعة وجدوا الأرض الخصبة، ومن كانوا ينشدون التجارة وجدوا الطرق السالكة والبيئة الآمنة،

وقد اختلف المؤرخون حول تاريخ تأسيس هذه الدولة فمنهم من بالغ في تحديد تاريخ ظهورها فذكر أنها عاصرت الحضارة الفرعونية على أساس تشابه

(1) - عمر بن أدريس :آخر مايات كانم في المرحلة الأولى وقد جمع العلماء استشارهم في الخروج من كانم فأشاروا عليه بذلك فترك كانم واتجه نحو غرب البحيرة ، وقد كانت مدة ملكه خمس سنين .
أنظر ديوان الكانم والبرنو- ص 44 .

(2) - الوزان - المصدر السابق - ص 35 ، أنظر أيضاً " حسن عيسى عبد الظاهر - الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا - القاهرة - الزهراء للإعلام العربي - 1991م .

(3) - الأدريسى - المصدر السابق - ج 1 - ص 111 .

(4) - الوزان - المصدر السابق - ص 41

مخلفاتهم الحضارية مع مخلفات المصريين القدماء في تلك الفترة⁽¹⁾، وهذا الرأي لا يصمد أمام الحقائق التاريخية فمنطقة وسط أفريقيا لم تعرف في تلك الفترة ظهور الدول بل كان النظام القبلي هو السائد، أما المخلفات الحضارية فهي تعبر عن مظاهر حضارية إقليمية ابتكرها الإنسان في إطار صراعه المستمر في الحصول على لقمة العيش ولا تعنى هذه المظاهر وجود دولة موحدة تسيطر على منطقة تشاد في تلك الفترة .

إن المرجح في تاريخ ظهور هذه الدولة ما ذكره بعض المؤرخين الأوروبيين حيث يرى صمويل ديكادو أن هذه الدولة قد تأسست في القرن التاسع الميلادي². بينما يرى البعض الآخر أنها تأسست حوالي سنة 800 ميلادي³، وهذه الآراء لا تبتعد عما ورد من اشارات في بعض المصادر العربية⁴

لقد ارتبط تأسيس هذه الدولة بالأسرة الماغومية التي تنتمي إلى نبلاء الطوارق مما يؤكد الأصول الشمالية لهذه الدولة، وتتميز المرحلة الأولى من تاريخ هذه الأسرة بالطابع الأسطوري بسبب نقص المعلومات عن هذه الفترة وربما يكون مصدرنا الوحيد هو ديوان الكانم والبرنو الذي تم تأليفه في أواخر القرن العاشر الهجري " القرن السادس عشر الميلادي " وعثر عليه الرحالة بارت Barth، ومن المرجح أن تكون معلومات صاحب الديوان عن المرحلة الأولى مستقاة من مصادر شفوية تعتمد على القصص أكثر من اعتمادها على وثائق مكتوبة .

لقد بلغ ملوك المرحلة الأولى أحد عشر ملكاً أولهم سيف بن ذى يزن⁽⁵⁾، وآخرهم جيل بن شو المعروف أيضاً بسالما الذي يؤرخ لحكمه بسنة "468 هـ/ 1075 م"، وتذكر الروايات المحلية أن زوج سيف بن ذى يزن تنتمي إلى الزغاوة، وقد

(1) - فضل كلود - المرجع السابق - ص 77 .

² Samuel Dicalo - Historical Dictionary of Chad - London - 1977 - p.9.

³ Ibrahima Baba Kake - Combats Pour L'histoire Africaine - Pairs - 1982 - p.138

⁴ لقد ذكر هذه الدولة اليعقوبي على سبيل المثال وقد عاش في القرن التاسع الميلادي ، مما يوحي بوجود هذه

الدولة في عصره "انظر اليعقوبي - المصدر السابق - ج 1 - ص 191

(5) - ديوان الكانم والبرنو - ص 33 .

أنجبت له ابنه إبراهيم الذي تولى الحكم بعده، وبعد إبراهيم تولى الحكم ابنه " دوكو Duku" الذي أطلق عليه لقب الماي وتعنى " الملك"، ثم تتوالى سلسلة ملوك هذه الأسرة حتى تصل إلى جيل بن شو، والملاحظ من خلال أماكن دفن الملوك على حدود الدولة أن هؤلاء الملوك قادوا الحملات العسكرية لتوسيع دولتهم والقضاء على خطر القبائل المناوئة لهم، ومما يؤكد الطابع الأسطوري لهذه الروايات أنها تجعل بعض الملوك قد حكم لمدة 250 سنة⁽¹⁾، كما يلاحظ خلال هذه الفترة عدم خضوع الزغاوة لسلطة هؤلاء الملوك، بل إن بعض الملوك قد حرصوا على إقامة علاقة طيبة مع الزغاوة ليتقوا سطوتهم .

النسب السيفي للأسرة الماغومية : —

لقد سميت الأسرة الحاكمة في الكانم بالأسرة السيفية، وذلك لإدعاء هذه الأسرة الانتساب إلى سيف بن ذي يزن الذي نجح في طرد الأحباش من اليمن ودخل صنعاء سنة 575 م ⁽²⁾، وقد ورد هذا النسب في ديوان الكانم والبرنو، حيث ذكر أن سيف أول ملوك كانم، وأنه جاء وأمه من مكة وحكم في برنو مدة عشرين سنة، وأنه بنى العاصمة " جيمى"، كذلك أكد هذه الرواية الماي عثمان بن أدريس⁽³⁾ " 795 — 828 هـ / 1392 — 1424 م " في رسالة إلى سلطان مصر في عهد المماليك السلطان برقوق سنة " 795 هـ 1392 م " يشكو فيها من اعتداءات عرب جدام حيث قال في الرسالة : " ونحن بنو سيف بن ذي يزن والد قبيلتنا العربي

(1) - أبراهيم طرخان — المرجع السابق — ص 55

(2) -أبن خلدون — المصدر السابق — ج 6 — ص 199 .

(3) - عثمان بن إدريس : أحد مآيات دولة الكانم والبرنو خلال المرحلة الكانمية وقد حكم لمدة 33 سنة واتسم عصره بكثرة الاضطرابات والحروب والقتال بسبب حروبه المتصلة مع البولالا وقد أرسل إلى الملك برقوق في مصر يشكو إليه من اعتداءات الأعراب على رعاياه . أنظر : إبراهيم صالح بن يونس — تاريخ الإسلام والعرب في إمبراطورية الكانم والبرنو — الخرطوم — كلية الآداب — 1970

القرشي، كذا ضبطناه عن شيوخنا ⁽¹⁾ كما أن احمد بن فرتوا وهو مؤرخ البلاط في عهد أدريس ألوما Aluma " 978 – 1012 هـ / 1570 – 1603 " أكد هذا النسب وربطه بقريش ⁽²⁾.

إذا وضعنا قصة هذا النسب في إطار واقعي وحاولنا التأكد من وجوده وفق المعطيات التاريخية زماناً ومكاناً فسنجد أن هذا النسب لا يصمد أمام الحقائق التاريخية وذلك للأسباب التالية : —

1 — من الناحية الزمنية نجد أن سيف عاش في القرن السادس الميلادي ⁽³⁾، بينما تأسست مملكة الكانم كما رأينا في أواخر القرن الثامن وفق أرجح الآراء، فطول الفترة الفاصلة بين العهدين والتي تصل إلى قرنين من الزمان تؤكد عدم صحة هذا النسب خاصة و أن الرواية المحلية تصر على أن سيفاً نفسه حضر إلى بلاد الكانم وأسس الدولة، فلو كان الأمر مجرد نسب بعيد إلى هذا الرجل لكان قابلاً للتصديق، ولكن ربط قيام هذه الدولة بسيف نفسه يفند هذه الرواية من أساسها .

2 — أن الرواية المحلية تحاول الجمع بين الانتماء لسيف والانتماء لقبيلة قريش، وبدا هذا واضحاً في رسالة الماي عثمان بن أدريس التي تطرقنا إليها حيث يصف سيف بأنه " والد قبيلتنا العربي القرشي " ⁽⁴⁾، وقد انتبه القلقشندى إلى هذه المغالطة التاريخية فقال " إلا أنه لم يحقق النسب فذكر أنه من قريش، وهو غلط فإن سيف بن ذي يزن من أعقاب تبابعة اليمن من حمير " ⁽⁵⁾، فالمعروف أن سيف ينتمي إلى الفرع القحطاني " عرب الجنوب " بينما ترجع قريش إلى الفرع العدناني " عرب الشمال " .

وربما اعتمد من يقول بهذا الرأي على مقابلة بين عبدالمطلب بن هاشم وسيف بن ذي يزن عندما قصد عبدالمطلب اليمن ليهنئ سيف على انتصاره وطرده الأحباش

(1) -احمد بن علي القلقشندى — صبح الأعشى في صناعة الإنشاء — تحقيق نبيل الخطيب -بيروت — دار الكتب العلمية - 1987 — ج 5 — ص 269 .

(2) -Palmer - The Bornu sahara - p 6

(3) -ابن خلدون — المصدر السابق — ج 2 — ص 73 .

(4) - القلقشندى — المصدر السابق — ج 5 — ص 269 .

(5) -المصدر نفسه — ج 5 — ص 269 .

من اليمن، وقد سأله سيف عن نسبه واخبره أنه عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف فرحب به سيف وقال : " أنت إذا ابن أخينا "⁽¹⁾ وهذه العبارة التي وردت على لسان سيف تحمل مغالطة أخرى، فهذه المقابلة وقعت فعلاً وذكرتها أغلب المصادر، ولكن الصحيح أن سيف خاطب عبد المطلب بقوله " أنت إذا ابن أختنا "⁽²⁾ ولم يقل "ابن أخينا " ⁽³⁾

3 — من الثابت تاريخياً أن سيف بن ذى يزن أصبح ملكاً على اليمن بعد انتصاره على الأحباش ⁽⁴⁾، وبناء على هذا فلم نجد دوافع مقنعة تجعل هذا الملك يترك بلاده التي قاسى الكثير في سبيل تحريرها، ويترك مكانه في الحكم ويذهب إلى وسط أفريقيا ليؤسس دولة هناك، فالظروف السياسية التي وجد سيف نفسه فيها كحاكم لبلاد محررة تجعل مسألة ترك هذه البلاد لا تعقل، وقد استمر سيف في حكم اليمن حتى اغتيل على يد أحد الحراس الأحباش الذين استبقاهم لخدمته⁽⁵⁾.

بعد أن ذكرنا الأدلة على نفي هذا النسب فسنحاول التعرف على الدوافع وراء صدور هذه الرواية وإصرار الروايات المحلية على صحتها خاصة إذا عرفنا أن مسألة الانتساب إلى العرب تكاد تكون ظاهرة عامة في ممالك السودان الغربي

(1) -المسعودي — المصدر السابق ج 2 — ص 59 .

(2) -جواد على — " المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام " بيروت — دار الغرب الإسلامي — 1987 م

(3) -على اعتبار أن أم عبدالمطلب هي سلمى بنت زيد بن عمرو من بنى عدى بن النجار من الخزرج الذين يرجعون إلى أصول يمنية أى أن سيف بن ذى يزن أعتبر نفسه من أحوال عبدالمطلب " أنظر / محمد بن جرير الطبري — تاريخ الرسل والملوك — بيروت — مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر — 1992 م ج 1 — ص 441 .

(4) - ابوحنيفة أحمد ابن داود الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق : عبدالمنعم عامر ،بغداد ، مكتبة المثنى ، 1959، ص 64.

(5) -أبو العباس شمس الدين ابن خلكان- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان- بيروت-دار إحياء التراث الإسلامي-1997-ج3-ص 226 — أنظر أيضاً:- الدينوري -المصدر السابق — ص 64 .

والأوسط، فسكان مملكة غانه يدعون الانتساب إلى صالح بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب⁽¹⁾، أما مملكة مالي فهناك رواية تنسب سكانها إلى علي بن أبي طالب⁽²⁾، كذلك يذكر السعدي أن ذا الأيمن أول ملوك صنغاي قد جاء من اليمن⁽³⁾، ولو رجعنا إلى منطقة بحيرة تشاد لوجدنا أن النسب السيفي لم يكن الوحيد هناك بل حاولت روايات أخرى إيجاد صلة بين بلال بن رباح مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم وبين بلاد كانم⁴.

إن أول ما نلاحظه أن مثل هذه الادعاءات لم تظهر إلا بعد انتشار الإسلام والحضارة العربية في تلك الجهات، وهذا يؤكد ارتباط هذه الظاهرة بدخول الأسر الحاكمة في الإسلام ومن ثم البحث عن نسب عربي تستمد منه نفوذاً معنوياً يكسبها شرعية تعزز من مكانتها في نفوس مواطنيها، ومن جهة أخرى جاء هذا الادعاء ليؤكد رغبة الأسر الحاكمة في ممالك السودان في تأكيد ارتباطها بالعرب، خاصة بعد اتصالها بالممالك الإسلامية في بلاد المغرب ومصر والحجاز ومالسته من مظاهر حضارية جعلتها تفتخر بانتسابها لهذا العالم العربي الإسلامي .

إن ادعاء الروايات المحلية في الكانم والبرنو بانتساب الأسر الحاكمة إلى سيف بن ذي يزن يمكن أن يكون له دافع آخر قوى وهو أن الأسرة الماغومية تنتمي إلى نبلاء الطوارق مما يؤكد وجود رابط بين الانتساب لسيف والانتماء للطوارق، فالطوارق فرع من قبائل صهناجة⁽⁵⁾ التي ترفع نسبها إلى عرب حمير ببلاد اليمن⁽⁶⁾ حيث اكتشف في اليمن الجنوبي آثار ونقوش في منطقة المكلا مكتوبة

(1) الأدريسى - المصدر السابق - ص 23 .

(2) -طرخان - المرجع السابق - ص 35 .

(3) -عبدالرحمن السعدي - المصدر السابق - ص 4 .

⁴John Iliffe Ief Africanins Histoire D'un Continent - Paris - 1997 - p134.

(5) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6 - ص 179. أنظر أيضاً طرخان - المرجع السابق - ص

32

(6) - ابن خلكان - المصدر السابق - ج 1 - ص 140 ، ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص

198.

بالحروف نفسها التي يكتب بها الطوارق، كما وجدت بعض القبائل العمانية في ظفار يتحدثون بلهجة قريبة من لهجة الطوارق⁽¹⁾، فربما جاء هذا الادعاء بحكم انتمائهم لحميم وفخرهم بسيف بن ذى يزن "المنتمى إلى نفس القبيلة" خاصة وأنه قام بعمل بطولي في سبيل تحرير بلاده من الأحباش، ومع مرور الزمن تحول هذا الفخر إلى ادعاء بالانتساب لهذا الرجل، ومن جهة أخرى فإن ادعاء هذا النسب يؤكد لنا صحة الرأي القائل بانحدار الاسرة الماغومية من الطوارق⁽²⁾ أو بمعنى آخر فإن الهجرات والاختلاط الاجتماعي المتبادل بين الشمال والجنوب كان له دوره في ظهور فكرة الانتساب إلى أصول عربية.

د / مرحلة سيادة كانم :

ليس من مهمتنا في هذا البحث دراسة تاريخ دولة كانم بشكل تفصيلي لأن البحث يركز على العلاقات بين هذه الدولة وبلاد المغرب، لذلك رأينا أن نعطي فكرة سريعة عن هذه الدولة والمراحل التي مرت بها قبل أن نتطرق إلى موضوع علاقاتها مع بلاد المغرب .

لقد مرت دولة كانم بمرحلتين سياسيتين : —

1 — بدأت الأولى ببداية عهد أوم بن جيل⁽³⁾ الذي تولى الحكم سنة " 479 هـ — / 1086 م " وكان مقر الدولة في هذه المرحلة إقليم كانم شرق بحيرة تشاد، واستمرت هذه المرحلة حتى القرن " الثامن الهجري " وأواخر القرن الرابع عشر الميلادي،

(1) محمد سعيد القشاط — الطوارق — عرب الصحراء الكبرى — بيروت — دار المحيط العربي — " د.ت " ص 30 .

(2) — حسن أحمد محمود — الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا — القاهرة — دار الفكر العربي — 1999م، ص 199 .

(3) — أوم بن جيل : يعتبر من أول المايات الذين ابتدأت بهم الفترة التاريخية المعروفة في دولة الكانم وقد تولى الحكم حوالي سنة 479هـ / 1086 م . " فضل كلود — المرجع السابق — ص 36 .

وكان آخر حكامها أبوبكر لياتو Libato 788 هـ / 1386 م " ويطلق على هذه المرحلة أسم مرحلة كانم⁽¹⁾ .

2 - أما المرحلة الثانية فتبدأ بعهد عمر بن إدريس⁽²⁾ سنة "789هـ - 1387م" حيث انتقلت الأسرة السيفية إلى إقليم برنو غرب بحيرة تشاد بسبب ضغط قبائل البولالا، وقد استمرت هذه المرحلة حتى القرن التاسع عشر الميلادي الذي تميز ببداية التغلغل الأوربي في أواسط القارة .

تبدأ المرحلة الكانمية مع بداية التاريخ المعروف لسلطين الكانم بعد انتهاء المرحلة الأسطورية التي غابت عنها المعلومات التاريخية الدقيقة، وتبدأ المرحلة الكانمية بتولى أوم بن جيل " 479 - 490 هـ / 1086 - 1096 م " وأول مانلاحظه على هذا الماى تلك النقلة الإدارية من اعتباره " فوجو " "fugu" أي شيخ قبيلة بلغة الكانورى إلى حاكم يمتاز بحسن التنظيم والإدارة⁽³⁾، مما يوحى ببداية الانتقال من العقلية القبلية المحدودة إلى افاق الدولة الواحدة ذات النظام الإداري الشامل، وفي عهد دونمه بن أوم⁽⁴⁾ " 491 - 546 هـ / 1097 - 1151 م " بلغت المملكة درجة كبيرة من القوة والأتساع⁽⁵⁾ وقد اعتمد دونمه على القوة العسكرية لتوسيع حدود دولته حيث بلغ عدد جنوده 120 ألف، كما أعتمد على سلاح الفرسان فبلغ عدد خيوله مائة 100 ألف فرس⁽⁵⁾.

(1) - أمين الطيبي - كانم - برنو بالسودان الأوسط ، صلات تاريخية وتجارية بالشمال الأفريقي - مجلة البحوث التاريخية - العدد 2 - 1987 م . طرابلس مركز دراسات جهاد الليبيين - ص 75 .

(2) - أنظر الملحق رقم (3)

(3) - Palmer - The Bornu sahara - p156

(4) - دونمه بن اوم : أحد مايات الكانم والبرنو ، حكم لمدة 55 سنة وقد أشتهر بتمسكه بالدين وزاد انتشار الإسلام في عهده وبنى أول مسجد في مدينة بالال الواقعة شرق كانم " انظر طرخان - المرجع السابق - ص 69

(5) - ديرك لانج - "ممالك تشاد وشعوبها " - موسوعة تاريخ أفريقيا العام - منظمة اليونيسكو - 1988 م - ص 257 .

(5) - ديوان الكانم والبرنو - ص 32 .

واصل خلفاء دونمه جهودهم في توسيع الدولة والمحافظة على حدودها من خطر هجمات القبائل المناوئة مثل الصو والبولالا، حيث نجح عبدالجليل " سالما"⁽¹⁾ في الانتصار على الصو وتوسيع حدود دولته حتى أصبحت تمتد من فزان إلى منطقة حوض النيل، إلا أن أشهر مايات كانم في هذه المرحلة هو دونمه دباليمي " 618 — 658 هـ / 1221 — 1259 م " الذي اشتهر بأنه محارب قوى قاد الكثير من الحملات لتوسيع دولته فتمكن من إخضاع بلاد الهوسا، كما وصلت دولته إلى مشارف حوض النيل من الشرق بينما توسع في الشمال على حساب إقليم كاوار وفزان وإن كان من التعسف على رأي بعض الباحثين أن نؤكد أن كانم كانت في القرن الثالث عشر إمبراطورية واسعة ذات تنظيم إقليمي متين⁽²⁾ بمعنى أن حدود الدولة لم تكن ثابتة بل كانت تتسع وتنكمش تبعاً لقوة الحملات العسكرية التي قادها دونمه، وتبعاً للظروف السياسية التي تمر بها الدولة .

نهاية المرحلة الكانمية : —

يرتبط سقوط الدول عادة بأسباب داخلية من أخطرها الصراع بين أبناء الأسرة الحاكمة، وقد يكون الغزو الخارجي أحد أسباب سقوط الدولة ولكن نجاح هذا الغزو مرتبط بضعف الجبهة الداخلية في أغلب الأحيان وينطبق هذا بالطبع على دولة الكانم والبرنو في مرحلتها الأولى حيث يعد عهد دونمه دباليمي آخر عهود القوة في هذه المرحلة فقد بدأ الصراع بين أولاده حول الحكم في أواخر عهده، إلا أن مقدرة والدهم السياسية وقوته العسكرية استطاعت القضاء على هذه الصراعات، ثم استمر الصراع على الحكم بعد وفاة دونمه، ووصل التدهور السياسي في هذه الدولة مرحلة خطيرة حيث تذكر المراجع أن الماي إبراهيم بن بيري " 700 —

(1) - تعنى سالما باللغة الكانورية " الأسود " وقد اشتهر بسواد لونه بعكس أسلافه " انظر طرخان —

المرجع السابق — ص 85 .

(2) - لانجي — المرجع السابق — ص 260 .

721 هـ / 1300 — 1321 م " قد أقدم على قتل ابنه وتعرض هو نفسه للقتل على يد محمد بن كاداي " حاكم الشمال " (1).

استمرت الحرب الأهلية والمؤامرات بين أبناء الأسرة الحاكمة بما لا يتسع المجال لتفصيله هنا، وكان من أبرز نتائج هذا الصراع ازدياد مطامع القبائل المناوئة للدولة مثل الصو والبولالا الذين استغلوا هذه الظروف الداخلية وشددوا من هجماتهم على الدولة .

لقد بدأ خطر الصو في الظهور منذ بداية القرن الثالث عشر، وكان أول خروج لهم في عهد عبدالجليل سالما وعلى الرغم من نجاح عبدالجليل في صددهم مؤقتاً إلا أنه قتل في المعارك ضدهم (2) مما يدل على شراسة المعارك بين الطرفين، ولم يستطع الصو أن يقضوا على دولة الكانم بشكل نهائي إلا أنهم اسهموا في إضعافها وأصبحوا مصدر خطر مستمر على هذه الدولة حيث تمكنوا من قتل أربعة من المايات (3) في منتصف القرن الثامن الهجري " الرابع عشر الميلادي "، مما مهد الطريق أمام قبائل البولالا للقضاء على هذه الدولة في مرحلتها الكانمية .

لقد رأينا عند حديثنا عن العناصر السكانية أن قبيلة البولالا تعد فرعاً من الأسرة السيفية، وكانت العلاقة حسنة في بداية زحفهم المشترك على منطقة بحيرة تشاد، ولكن بعد ظهور دولة الكانم ساءت العلاقات بين الطرفين ،وأصبح البولالا عنصراً متمرداً بشكل مستمر على سلطة الكانم، وتمكنوا من تأسيس إمارة شمال بحيرة فترى (4)، وأصبحت هذه الإمارة في حالة حرب مستمرة مع حكام الكانم مستغلة الانشقاق في صفوف الأسرة المالكة.

إن أخطر مراحل الصراع بين البولالا وحكام الكانم كان في عهد دونمه دباليمي حيث ازداد ضغط البولالا وتصدى دونمه لهذا الضغط فقاد عدة حملات بنفسه وانتصر على البولالا في أكثر من موقعة وقتل منهم أعداد كبيرة، ولكن دونمه نجح فقط في تأجيل خطر هذه القبائل إلى نهاية عهده، فقد استمرت هجمات

(1) -Palmer - The Bornu sahara - p 92

(2) - Apid -P92

(3) -لأنجي - المرجع السابق - ص 264 .

(4) - الغنيمي - المرجع السابق - ص 27 .

البولالا بعد وفاة دونمه مستغلين الصراع الداخلي بين أبناء الأسرة الحاكمة، ولعل مما اسهم في إشعال هذا الصراع بصورة أكبر ورجح كفة البولالا ظهور زعيم بولالي قوى هو عبدالجليل بن سيكوما " 767 — 814 هـ / 1365 — 1411 م " الذي عاصر تسعة من مايات كانم وقتل منهم أربعة خلال هذا الصراع ⁽¹⁾، وفي النهاية انتصر البولالا واضطرت الأسرة السيفية في عهد عمر بن أدريس " 788 — 794 هـ / 1386 — 1391 م " إلى مغادرة إقليم كانم والاتجاه إلى الغرب حيث استقروا في إقليم برنو ⁽²⁾، ودخل البولالا العاصمة جيمى وسيطروا على إقليم كانم بينما استمرت الأسرة السيفية في الحكم غرب بحيرة تشاد فيما يعرف بمرحلة البرنو .

ـ هـ / مرحلة سيادة برنو

بدأت مرحلة سيادة برنو بمغادرة آخر حكام الأسرة السيفية وهو عمر بن أدريس لإقليم كانم والاستقرار غرب بحيرة تشاد في إقليم برنو وتحديداً حول نهر " يوبيه " ⁽³⁾ وبدأ منذ ذلك التاريخ أسم برنو يتحول من مجرد إقليم تابع لدولة كانم إلى مركز القوة في هذه الدولة فقد لمع اسم برنو في المؤلفات التاريخية بداية من أواخر القرن الثامن والتاسع الهجري/القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر الميلادي .

لقد اتخذ الماي عثمان بن أدريس 795-829 هـ / 1392-1425 م من مدينة كاكا عاصمة لدولته وبدأ في إعادة ترتيب أمور الدولة الإدارية بعد فترة الفوضى التي رافقت خروجهم من كانم، ولكن الحرب الأهلية استمرت تمزق جسم الدولة مع استمرار خطر البولالا، حيث أعلن بعض حكام المقاطعات استقلالهم، ونتج عن

(1) -لاتنجي - المرجع السابق - ص 264، دائرة المعارف الإسلامية- مادة برنو- ج7-ص 124 .

(2) Samuel Decalo -Historical dictionary of Chad - p9

(3) إبراهيم صالح بن يونس - المرجع السابق - ص 72 .

هذا حروب أهلية زادت من سوء الأوضاع في إقليم برنو⁽¹⁾، كما تعرضت الدولة لهجمات من قبائل جدام العربية مما جعل الماي عثمان بن أدريس يرسل إلى سلطان مصر السلطان برقوق سنة "795 هـ 1392 م" يشكو إليه تصرفات هذه القبائل وإقدامها على استرقاق عدد من أفراد دولته لغرض بيعهم كرقيق⁽²⁾.

استمرت حالة الفوضى السياسية في برنو في عهد خلفاء عثمان حيث قتل بعضهم ونفي بعضهم الآخر على يد حكام الأقاليم ذوى النزعة الانفصالية، وقد بدأ نفوذ هؤلاء الحكام في الظهور في عهد عثمان بن ادريس 795-829 هـ 1392-1425 م مستغلين انشغاله بالمشاكل الداخلية⁽³⁾.

بعد فترة من الفوضى استمرت حوالي قرن من الزمان بدأت مرحلة الاستقرار والقوة بتولي الماي على القاجى الذي يلقب بالغازي⁽⁴⁾ سنة "877 هـ / 1472 م"، وقد نجح هذا الماي في إقصاء منافسيه عن الحكم والقضاء على الحروب الأهلية وتمكن من إعادة هبة الدولة وكان أبرز أعماله قيامه ببناء عاصمة ثابتة للدولة وهى مدينة بيرنى Birni التي تقع غرب مدينة كاكا Kuka.

سار الماي أدريس بن على (ابن عائشة) "909 - 933 هـ / 1503 - 1526 م" على سياسة والده بالمحافظة على وحدة الدولة، ولعل أبرز أعماله في هذا المجال نجاحه في هزيمة البولالا - الأعداء التقليديين للأسرة السيفية - واستعادة العاصمة القديمة للدولة "جيمى"، ولكن هذا الماي فضل العودة إلى بيرنى بعد ضمان خضوع البولالا لسلطته .

(1) - إبراهيم طرخان - المرجع السابق - ص 106 لمزيد من التفصيل حول مرحلة سيادة برنو ، أنظر : عبد الفتاح حسنين مقلد - سلطنة البرنو حتى 1808 م - رسالة ماجستير غير منشورة - جامعة القاهرة - معهد البحوث والدراسات الأفريقية - 1978م

(2) - القلقشندى - المصدر السابق - ج 8 - ص 119 - انظر نص الرسالة في الملحق رقم (1)

(3) - لانجى - المرجع السابق - ص 271

(4) - على الغازى : هو السلطان الثامن والأربعون في ترتيب ملوك أسرة كانم ، وقد تمكن من إعادة هبة الدولة وأشتهر بمواهبه الإدارية ، ومن أبرز أعماله بناء مدينة بيرنى التي أصبحت عاصمة لدولة الكانم والبرنو خلال مرحلة برنو ، كما وطد علاقاته مع ممالك بلاد المغرب وأستورد منها الخيل لاستعمالها في جيشه " انظر - إبراهيم صالح - المرجع السابق - ص 79 .

استمرت جهود خلفاء على الغازي وابنه أدریس في توسيع حدود الدولة على حساب جيرانه والتصدي لخطر البولالا الذين لازالوا يحملون روح العداء للدولة رغم خضوعهم الظاهري، وينتظرون الفرصة المناسبة للقضاء عليها ويعد عهد أدریس الوما " 779 – 1012 هـ / 1571 – 1603 م " من أزهى عصور تاریخ برنو من حيث اتساع الدولة ونظمها الإدارية، إذ يبدو أن مواهب ادریس لم تقتصر على النواحي العسكرية بل كان يملك مواهب إدارية ساعدته على إدارة شؤون المملكة وحمايتها من المعارضة الداخلية والأخطار الخارجية¹، لذلك كان عهده يقارن بعهد منسی موسی⁽²⁾ ت 738 هـ / 1337 م " في مالی، وعهد أسکيا محمد⁽³⁾ ت 936 هـ / 1529 م " في صنغای .

لقد نقل إلینا أحمد بن فرتوا الذي عاصر ادریس الوما أخبار غزواته العسكرية بالتفصيل في مخطوط عثر عليه بالمر وترجمه تحت عنوان :

{ الإثنی عشر سنة الأولى من حکم ادریس الوما " 979-991هـ / 1571 – 1583 م " }

وقد ساعد إدریس الوما في تحقيق انتصاراته في هذه الحروب أن جيشه كان يستخدم الأسلحة النارية التي حصل عليها نتيجة لتوطيد علاقاته مع الأتراك الذين بدأ في تلك الفترة حکمهم في شمال أفريقيا، فقد تولى مدربون أتراك أحضروا

¹ Phillis . M, Martin - OP. Cit - p82.

⁽²⁾ -منسی موسی : يعتبر من أشهر ملوک مملكة مالی وقد وصفه ابن خلدون بأنه " رجلاً صالحاً وملكاً عظيماً له في العدل أخبار تؤثر عنه " وقد زاد من شهرة هذا الملك رحلة الحج الشهيرة التي قام بها سنة 724 هـ / 1323 م وقد ذكر ابن خلدون أن منسی موسی صاحب معه ثمانية حملاً من التبر وكل حمل ثلاثة قناطر كما رافقه 500 خادم ، كما ذكر القلقشندي أن منسی موسی قد وزع أغلب هذه الثروة على البلاط الحاكم في مصر " انظر ابن خلدون – المصدر السابق – ج 6 – ص 238 ، ج ، والقلقشندي – المصدر السابق – ج 5 – ص 283 .

⁽³⁾ -أسکيا محمد : من أشهر ملوک دولة صنغای أشتهر بمواهبه الإدارية والعسكرية ، وتقديره للعلماء كما زادت شهرته بعد رحلة الحج التي قام بها سنة " 903 هـ / 1497 م " وقد ذكر السعدي انه أنفق في هذه الرحلة ثلاثمائة ألف قطعة من الذهب " أنظر السعدي – المصدر السابق – ص 72 " أنظر أيضاً " محمود كعت – المصدر السابق – ص 59 ، وأنظر أيضاً – شاکر مصطفى – موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها – بيروت – دار العلم للملايين 1993 م – ج 2 – ص 967 .

خصيصاً من طرابلس أمور تدريب بعض الفرق في جيش ادريس والإشراف عليها⁽¹⁾.

لقد رأينا أن قبائل البولالا كانت مصدر خطر دائم على حكام الكانم، وفي عهد ادريس ركز جهوده على استعادة الكانم من سيطرة البولالا، وبعد عدة حروب ضد أمير البولالا عبدالجليل⁽²⁾ تمكن ادريس من الاستيلاء على إقليم كانم وإخضاع البولالا لسيطرته بعد أن عمل على كسب ود شيوخ القبائل العربية التي أقنعها بالتخلي عن البولالا والتحالف معه⁽³⁾

(1) - يوفيل - المرجع السابق - ص 364 .

(2) - لم تذكر لنا المصادر اسمه كاملاً حيث اكتفي ابن فرتوا بقوله عبدالجليل السلطان البولالي المناوئ ، وقد بدأت الحرب بينه وبين ادريس ألوما سنة 990هـ / 1592م ، وانتهت هذه الحرب بانتصار إدريس وفرار عبدالجليل ، أنظر طرخان - المرجع السابق - ص 119

(3) - إبراهيم صالح - المرجع السابق - ص 47 .